دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان: معالم الفكر السياسي الإسلامي
المصدر: مجلة العلوم الاجتماعية
الناشر: جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي
المؤلف الرئيسي: النفيسي، عبدالله فهد
المجلد/العدد: مج 5, ع 3
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 1977
الشهر: أكتوبر
الصفحات: 6 - 26
رقم MD: 186181
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: EduSearch
مواضيع: نظم الحكم في الاسلام، الاسلام والسياسة، الفلسفة الاسلامية، التاريخ الاسلامي، الشريعة الاسلامية، النظم السياسية، القبلية، حقوق الملكية، الدعوة الاسلامية، الفكر السياسي الإسلامي
رابط: http://search.mandumah.com/Record/186181

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

معالم الفكر السياسي الإسلامي

د. عبد الله النفيسي ★

« ان الملك (السلطة) لا يتم عزه الا بالشريعة ، ولا قوام للشريعة الا بالملك ، ولا عز للملك الا بالرجال ، ولا قوام بالرجال الا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا بالعماره ، ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل باصلاح العمال وصلاح العمال باستقامة الوزراء » . ★★

ابن خلدون في « المقدمة »

التصور الشائع والتصور المغمور :

ان التصور المبثوث في اذهان الناس العاديين حول الاسلام انه دين . والدين في نظرهم وتصورهم هو ما يتعلق بالاخلاق الفردية والاحوال الشخصية ولا يتعدى في تعاليمه هذه الاطر . هكذا كان شأنه في التاريخ وشأنه في الحاضر وما ينبغي أن يكون عليه شأنه في المستقبل . هذا التصور الخاطىء من الاساس المبثوث في اذهان الناس العاديين حول الاسلام هو ثمرة التآمر الثقافي والفكري والسياسي والحضاري التاريخي الذي نشط في تعزيزه الغرب عبر معاهده وجامعاته وعملائه الحضاريين في كل أرض الاسلام . لو صح هذا التصور ، ما كان ينبغي أن يحدث ما حدث في تاريخ الاسلام ، وما نشأ وترقى من حضارة منهجية ملتزمة في جوف الجزيرة العربية وبغداد ودمشق والاندلس وقرطاج والهند وفارس وبخارى وكافة المناطق الجنوبية في ما يسمى الان بالاتحاد السوفييتي . لو كانت مهمة الاسلام في هذا الكون هي فقط تهذيب وتشذيب أخلاق الناس لما كان هناك داع تاريخي لكل الفتوحات الاسلامية ولكل جند الاسلام ولكل السرايا القتالية المدججة بالسلاح التي كان يباركها رسول الله محمد . لو كانت مهمة محمد عليه الصلاة والسلام تنحصر

★ استاذ العلوم السياسية بكلية التجارة في جامعة الكويت .

★★ ما بين القوسين من عندي ـ النفيسي .

في اطر الاخلاق الفردية والمناقبية المثالية ، لو كانت مهمته هي تلك لما أرسل طلحة بن عبيد الله في نفر من اصحابه وامره أن يحرق — بالمعنى الحرفي للكلمة — بيت سويلم على من فيه حيث يجتمع بعض المنافقين الذين كانوا يثبطون الناس عن رسول الله في غزوة تبوك .

ولو كانت مهمته — عليه الصلاة والسلام — مناقبية او رواقية او مثالية لما غزا وقاتل سبعا وعشرين غزوة : غزوة ودان — وغزوة بواط ، غزوة العشيرة ، غزوة بدر الاولى ، غزوة بدر الكبرى ، غزوة بني سليم ، غزوة السويق ، غزوة غطفان ، غزوة بحران ، غزوة احد ، غزوة حمراء الاسد ، غزوة بني النضير ، غزوة ذات الرقاع ، غزوة بدر الاخرة ، غزوة دومة الجندل غزوة الخندق ، غزوة بني قريظة ، غزوة بني لحيان ، غزوة ذى قرد ، غزوة بني المصطلق ، غزوة الحديبية ، غزوة خيبر ، غزوة الفتح ، غزوة حنين ، غزوة الطائف ، اخيرا غزوة تبـــوك .

قاتل منها في تسع غزوات : بدر واحد ، والخندق ، وقريظه ، والمصطلق وخيبر ، والفتح ، وحنين والطائف (١) . لو كان محمد فقط داعية اصلاحيا لما لقي ما لقيه يوم احد : فعتبة بن ابي وقاص رماه فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى ، وعبد الله بن شهاب الزهرى شجه في جبهته ، وابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ... الخ (٢) . لو كانت بعثته فلسفة اشراقية لما فعل كل ذلك او لقي كل ذلك عليـــه الصلاة والسلام .

* شأن محمد والاسلام اكبر واخطر واعظم من كل التصورات العادية المبثوثة في اذهان الناس العاديين . لقد كان اعلانا عاما « لتحرير **الانسان** في **الارض** لم يكن اعلانا نظريا فلسفيا سلبيا ، انما كان اعلانا حركيا واقعيـــا ايجابيا ، اعلانا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام **يحكم** البشر بشريعة الله ، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك ومن ثم لم يكن بد من ان يتخذ شكل **(الحركة)** الى جانب شكل**(البيان)** ذلك ليواجه الواقع البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه « لذلك كان للقرآن **موضوع** Subject **وبحث رئيسي** Thesis **وهدف** (٣) Target اما موضوعه فهو : الانسان ومدار وجوديته .واما بحثـــه الرئيسي فهـــو : ان النظريات التي وضعها الانسان وتقديراته الخيالية وخضوعه لسلطان الاهواء ثم المواقف التي اتخذها على اساس من تلك النظريات ، كلها في حقيقتها باطلة ومهلكة للانسان نفسه من ناحية المصير . وانما الحق هو الذي علمه الله الانسان حين جعله خليفة له في الارض . وبموجب ذلك الحق ليس من منهج

من المناهج يقوم على الصحة ويتوصل الى العاقبة الا المنهج المطروح في القرآن . وأما هدفه : فهو دعوة الانسان الى هذا المنهج الصحيح . والذي يدرس القرآن واضعا هذه النقاط الثلاث الاساسية امام عينيه يتبين له بدون ما غموض ، أن هذا الكتاب لم يحد من موضوعه الرئيسي وبحثه الرئيسي وهدفه الرئيسي (٤) . **لقد ادركت الجاهلية يومها بان الدعوة الجديدة جذرية في رؤيتها للاشياء والاوضاع** وبانه من الافضل الاعتراف بذلك : قال عتيبة بن ربيعة لقومه ، « خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، **فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبا عظيم** » (٥) . لقد كانت الجاهلية صادقة مع نفسها حين واجهت الدعوة الجديدة ، ولم تحاول أن تدس رأسها في التراب وتتجاهل ما يدور في أرضها وما يتوقع أن يزلزل كيانها . فهذا النضر بن الحارث ــ احد شياطين قريش ــ يعترف بالخطر الداهم الذي تمثل في الدعوة الجديدة : « يا معشر قريش ، انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، واصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم **ساحر** ، لا والله **ما هو بساحر** ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم **كاهن** ، لا والله **ما هو بكاهن** ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ، وقلتم **شاعر** ، لا والله **ما هو بشاعر** ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ورجزه ، وقلتم **مجنون** ، لا والله **ما هو بمجنون** ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، **يا معشر قريش ، فانظروا في شانكم ، فانه والله لقد نزل بكم امر عظيم** (٦) . لو كانت الدعوة الجديدة قضيةاخلاقية او رواتية او تصوفية او كلامية لماقال النضر ما قاله . حقا بميلاد الدعوة قد نزل بالعالم امر عظيم .

جذرية وحركية الدعوة الجديدة :

* عظمة الدعوة الجديدة تكمن في **جذريتها** . قوتها تكمن في **واقعيتها وحركيتها** . احلى ما في بيانها التاريخي ــ القرآن ــ **الوضوح والسطوع** والوثوق من النصر . لم تأت اذن الدعوة الجديدة ــ وبمفهومها الجذري الواقعي الحركي ــ **كيما تتعايش** مع الاوضاع الجاهلية التي كانت سائدة في بيئة النزول والبعثة ــ الجزيرةالعربية ــ **بل جاءت لتلغى** الواقع ذاك وتنشىء واقعا اخرا بكافة وجوهه السياسية والاقتصادية والاجتماعية . والجاهلية في نظر الدعوة الجديدة لم تكن تنحصر في كومات الحجر التي تتكون منها أصنام مكة اللات والعزى ومناة وهبل ، بل كانت أساسا الاوضاع التحتية التي انبثقت منها هذه الوثنية . لقد جاءت الدعوة الجديدة لتلغى تلك الاوضاع التحتية وتنشىء أوضاعا تحتية من نمط اخر وجذر اخر كيما تنبثق منها عبادة

جديدة ذات أوجه سياسية واقتصادية واجتماعية . لم تأت الدعوة الجديدة لتقول **لعرب الجزيرة** لا تعبدوا أثافي القدور (٧) لتأتي بأثافي صماء من لون اخر، بل جاءت لتعطى **الانسان** في **الارض تصورا جديدا** يعرف منخلاله مركزه في هذا الكون ، وتفسيرا شاملا له وبناء على هذا التصور يتحدد منهج الحياة التي ينبغي أن يعيشها **والنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي يحقق هذا المنهج** . لم تترك الدعوة الجديدة مصيرها للزمن أو لتقلبات الوضع القبلي في الجزيرة ، بل تكلمت أولا عن التصور الجديد للكون والانسان والحياة من خلال القرآن المكي ، ثم بعد أن استقرت الحقيقة الايمانية في صدر الجماعة الاسلامية الاولى ، بدأ القرآن المدني يعنى بشؤون الدولة الجديدة والشعب الجديد والواقع الجديد : دولة وشعب وواقع الفكرة . ان مقارنة وجيزة بين الواقع المكي والواقع المدني ــ خاصة في الفترة القريبة لما بعد الهجرة ــ من حيث السلطة السياسية وتسيير الارزاق والمصالح والتشكيلة الاجتماعية ، يبرز لنا الوجه الجذري والحقيقة الجذرية للدعوة الجديدة . وحدث المؤاخاة بين المهاجرين والانصار يعتبر انقلابا اجتماعيا هز كل قيم واقيسة مكة الجاهلية لم ترق ولن ترق اليه المجتمعات الحديثه في يومنا هذا . الدعوة الجديدة ــ وهذا يدركه كل من يقرأ القرآن بعناية ــ كانت تنشىء أمة ذات تصور خاص وثقافة خاصة وبنيان خاص وسياسة خاصة وتسيير اقتصادي خاص وتشكيل اجتماعي خاص ، باختصار أمة متميزة متفردة عن سائر الامم . هذه الامة التي كانت الدعوة الجديدة حريصة على صناعتها منوط بها ــ حسب النص القرآني ــ لا **لتعديل** الاوضاع في **الجزيرة العربية** فحسب ، بل **لقلبها والغائها في الارض** ، لذلك كانت تعد الامة للقيادة البشرية . ومن يدرس أسباب النزول للايات القرآنية يلاحظ الارتباط الوثيق بين **الفكرة والحركة** كان القرآن بتعبير اخر لا يقدم للجماعة الاسلامية الاولى **نظرية** ــ بالمعنى المتعارف عليه في الدراسات الاجتماعية ــ بقدر ما يصنع **حركة وتنظيما ووعيا بعيد المدى لطبيعة القضية** . ولذلك كان الصحابة لا يستكثرون من قراءة القرآن لانهم كانوا يتلقون منه أمرا يوميا وكلما زادت القراءة كبر العبء ، فبعضهم كان يقرأ لا أكثر من عشرة آيات ويمر بكل عمليات المكابدة والمعاناة من أجل أن ينقلها من كونها النظري الى حيزها العملي اليومي . لم تكن قراءتهم للقرآن من أجل الثقافة الباردة والتذوق اللغوي فهذا هدف رخيص في نظر الدعوة الجديدة الجذرية الواقعية الحركية . من أجل هذا نقول بأن الدعوة الجديدة ليست دعوة أخلاقية أو رواقية أو مناقبية أو مثالية ، بل هي دعوة جديدة تماما في تصورها للانسان وللكون وللحياة ولكل الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية المنبثقة من ذلك التصور .

لقد كانت منهاجا انقلابيا شاملا ، موضوعه الانسان ومداه كل الارض .

طبيعة الاوضاع السياسية في الجزيرة العربية قبل الاسلام :

* اذا كانت هذه هي طبيعة الدعوة الجديدة ، فكيف تبدت هذه الطبيعة على الصعيد السياسي في الجزيرة العربية ؟ **كيف كانت اوضاع الحكم عند العرب قبل الاسلام ؟ وماذا حدث لهذه الاوضاع بعد بروز الاسلام كقوة سياسية ساحقة ؟** للاجابة على هذه الاسئلة الجوهرية نقول : لم يكن للعرب قبل الاسلام حكومة بالمعني الذي نعرفه للحكومات الان . **لم تكن لهم ادارة منظمة** ، لها الشرعية والقوة التي يخضع لها الناس . كانوا بدوا او شبه بدو ينتمون الى قبائل متعددة ومتفرقة . افراد **القبيلة** تجمعهم **رابطة الدم** التي تعطي للفرد القبلي حق الاستصراخ بها حين يتعرض للخطر . والقبيلة كانت تعيش في حالة دائمة من النزاع مع القبائل الاخرى ، ولذلك انتشرت الاحلاف بين القبائل . **الوحدة السياسية** في الجزيرة كانت اذن القبيلة والقبليون لم يكونوا في كل الاحوال يخضعون لرئيسهم ، بل في كثير من الاحيان ما يتمرد بعضهم ويرفض الانصياع لحكم الرئيس ولا يفض الخلاف الا من خلال قناتين : اما بالقوة او بالاحتماء بقبيلة اخرى وهو ما يسمى بالعرف القبلي بحق **الدخالة** . ولان القبائل كانت وحدات سياسية مستقلة ، كانت البلاد مقسمة الى مناطق نفوذ متعددة (٨) . **الغلبة هي التي تحدد من يسيطر واين وكيف والى متى** . حتى في داخل التشكيل القيادي للقبيلة لم تكن هناك معايير معينة لنقل السلطة وكان لكل قبيلة عرف وتقاليد خاصة . هذا في اواسط الجزيرة . اما في الحجاز فكانت هناك مراكز ذات حياة سياسية مختلفة بعض الشيء . فكل مدينة من تلك المدن تحكم نفسها وتستقل عن الاخرى تمام الاستقلال ، وهكذا كان الامر في مكة وفي المدينة والطائف (٩) الا ان الداء القبلي استشرى ايضا بالمدن ، ولم يعرف العرب الانتساب الى المدن الا في القرن الثاني الهجري ولناخذ مكة كمثال من حيث مؤسسة الحكم . لم تكن ــ ام القرى مكة ــ تحكم من قبل ملك وانما كان الحكم فيها مسندا الى عدة رجال من الاسر الكبيرة تسموا الاعمال العامة بينهم وهي : **الحجابة او السدانة ، والسقاية ، والسفارة ، واللواء ، والرفادة ، والندوة ، والخيمة ، والخازنة ، والازلام .** وكانت هذه الوظائف تتوزع بين الاسر الكبيرة وفي كثير من الحالات كانوا يتوارثونها . اما الحجابة او السدانة فهي حراسة مفاتيح الكعبة ، والسقاية هي الاشراف على بئر زمزم وسقاية الحاج ، وكانت في يد العباس بن عبد المطلب في وقت فتح مكة . والديات وكان صاحبها اذا احتمل شيئا فسال فيه قريشا صدقوه ، وعند ظهور الرسالة كان يقوم عليها ابو بكر رضي الله عنه . والسفارة كان لصاحبها الحق في البت في مسائل الصلح او الخلافات التي

تنشب بين قريش وغيرها من القبائل وكان يقوم على هذا المنصب عمر بن الخطاب . واللواء كان صاحبه يعتبر كبير القواد ، ويسير أمام الجماعة في القتال أو التجارة ، وكان يقوم بهذا المنصب في أول الاسلام أبو سفيان . والرفادة هي الاشراف على الضريبة التي تخصص لاطعام الفقراء من الحجاج المقيمين أو المسافرين لانهم كانوا يعتبرونهم ضيوف الله . والندوة كان رئيسها يعتبر كبير المستشارين فلا تصدر عن قريش أية قرارات الا بموافقة . اما الحمية فيقصد بها حراسة قاعة المجلس (الندوة) وهو منصب يبيح لصاحبه الحق في دعوة الجمعية وكان يتولى هذا المنصب خالد بن الوليد من بني مخزوم ابن مرة . والخازنة هي ادارة الاموال العامة وكان هذا المنصب من حق قبيلة بني جمح بن كعب ويقوم به الحارث بن قيس . وأخيرا الازلام هو منصب يعطى لصاحبه الاشراف على السهام التي كان العرب يستقسمون بها للاستخارة لمعرفة رأي الآلهة في أمر من الأمور ، وكان القائم عليها صفوان أخا أبي سفيان بن أمية (١٠) . **هذه كانت وظائف الحكم** في مكة وهي متقدمة غاية التقدم بالقياس لباقي المراكز في الجزيرة العربية . أما الرياسة فكان يحصل عليها أكبر من يقوم بهذه الوظائف سنا ، وكان أسنهم في أيام النبي عليه الصلاة والسلام هو العباس بن عبد المطلب . أما باقي أجزاءالجزيرة فانتشرت فيها **الممالك الصغيرة** كانتشار الزعتر البري . فنرى **مملكة معين** وكانت الحكومة في هذه المملكة وراثية كما ورد في نقوشها حيث تنقل السلطة من الاب الى الابن . **ومملكة سبأ** وهذه ورثت ملك معين ومن أشهر ملوكها الملكة بلقيس التي ورد ذكرها في القرآن ومملكة **حمير** ومن أشهر ملوكها يوسف ذو نواس وكان يحكم نجران التي كانت تدين بالمسيحية ، غير أنه اعتنق اليهودية **في أواخر أيامه واضطهد المسيحيين وأحرقهم بالنار سنة ٥٣٤** ميلادية وهم الذين ذكرهم القرآن في **سورة البروج** وسماهم أصحاب الاخدود في قوله تعالى : **« قتل أصحاب الاخدود . النار ذات الوقود . اذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له ملك السماوات والارض والله على كل شيء شهيد »** . **ومملكة الحيرة** وقد كان أهلها واسطة بين الفرس والعرب وعلى أيديهم انتقلت الحضارة الفارسية الى بلاد العرب ويرجع تاريخ هذه المملكة الى القرن الثالث الميلادي واستمر الى ظهور الاسلام وأخيرا **مملكة غسان** وقد كان فيها كثير من الحصون والبيع والكنائس وكان ملوكها مشهور عنهم اقتناء الجواري الروميات وأخذوا من اللغة اليونانية كثيرا من الكلمات التي لم تكن معروفة قبلهم مثل كلمتي : الكنيسة والراهب . وقد خضعت هذه المملكة للروم حتى جاء الاسلام ووقعت موقعة اليرموك سنة ١٣ هجرية فاستولى المسلمون على هذه المملكة العربية (١١) . يلاحظ أن كل مملكة من هذه الممالك تسيطر عليها قبيلة معينة،

كما يلاحظ انه **لم تكن هناك في الجزيرة العربية حكومة مركزية** تعزز جانب القانون وتعمل على اقرار النظام في البلاد **وكان على صاحب الحق ان يعمل على نوعه بعصبيته وقوته** . وبلغ من وقاحة بعض حكامهم وتماديهم البالغ في الجبروت والسطو والافعال القهرية ما حكي عن عمليق ملك طسم وجديس انه امر الا تزف فتاة من جديس الى زوجها قبل ان تزف اليه . يقول **ابو سعيد نشوان الحميري** : « جديس وطسم هما امتان عظيمتان من الامم الماضية انقرضوا فلا بقية لهم ، وجديس اخو ثمود ، وهما ابنا عابر بن ارم بن سام بن نوح ، وطسم بن لاوذ بن سام بن نوح وكانت طسم وجديس يسكنون اليمامة وكان له مملك من طسم سيىء السيرة ، وكانوا لا يزوجون امراة من جديس الا بعث اليها ليلة زفافها فافترعها قبل زواجها (١٢) » . وكانت خلال كل ذلك فروق اجتماعية وطبقية ثابتة بين الناس في الجزيرة العربية حيث **قسم الناس الى قسمين : الملوك وغير الملوك** . ثم يقسمون غير الملوك الى قسمين رئيسيين : اهل مدر واهل وبر واهل المدر الى قسمين : زراع وتجار .. الخ قال ابن العبري : « واما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين : **اهل مدر واهل وبر** . فأما اهل المدر فهم الحواضر وسكان القرى ، وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والماشية والضرب في الارض للتجارة . واما اهل الوبر فهم قطان الصحارى وكانوا يعيشون من البان الابل ولحومها منتجعين منابت الكلأ ،مرتادين لمواقع القطر ، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال (١٣) . وخير ما نختم به هذا الوصف العاجل لطبيعة الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة لدى عرب الجاهلية ما ذكره **ابن خلدون في مقدمته يصف فيها احوال العرب قبل الاسلام** : « وهم اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب ، لانهم امة وحشية ، فينقلون الحجر من المباني ويخربونها لينصبوه اثافي للقدر ، ويخربون السقف ليعمروا به خيامهم، ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم ، وليس عندهم في اخذ اموال الناس حد ينتهون اليه وليست لهم عناية بالاحكام وزجر الناس عن المفاسد ، انما همهما يأخذونه من اموال الناس نهبا او مغرما ، فاذا توصلوا الى ذلك اعرضوا عما بعده من تسديد احوالهم والنظر في مصالحهم ، وهم متنافسون في الرياسة وقل ان يسلم واحد منهم الامر لغيره ولو كان اباه او اخاه او كبير عشيرته الا في القليل، فيتعدد الحكام منهم والامراء وتختلف الايدي على الرعية في الجباية والاحكام ، فيفسد العمران وينتقض » . ورغم كل ذلك واكثر الا ان ابن خلدون يستدرك ويقول ايضا : « وهم مع ذلك اسرع الناس قبولا للحق والهدى ، لسلامة طباعهم من عوج الملكات ، وبراعتها من ذميم الاخلاق ، الا ما كان خلق التوحش القريب المعاناة ، المتهيء لقبول الخير » .

الاسلام كنقيض مباشر للجاهلية :

* تلك كانت تطبيعة الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في جزيرة العرب قبل الاسلام ، فكيف تبدى الاسلام عليها باعتباره القوةالسياسية المنظمة الجديدة ؟ ماذا كان موقفه من تلك الاوضاع ؟ وما هي سبله في معالجتها ؟ وهل كانت معالجاته جذرية تنحو نحو الالغاء الكامل للجاهلية السياسية والاجتماعية والاقتصادية أم لا تمانع التعايش معها ؟ في غضون الاجابة على هذه الاسئلة ينبغي تحديد المنهج السليم الذي يؤدي اليها . نقصد بذلك اننا لا ينبغي أن نستحضر أمامنا انحرافا معينا من انحرافات الواقع الاسلامي أو حتى الفكر الاسلامي ثم ندعه يستغرق اهتمامنا كله ، بحيثيصبح الرد عليه وتصحيحه هو المحرك الكلي لنا . ذلك أن استحضار انحراف معين أو نقص معين والاستغراق في دفعه منهج شديد الخطر وله معقباته في انشاء انحرافات جديدة لدفع انحرافات قديمة والانحراف انحراف على كل حال (١٤) اذا وضعنا ذلك المنهج نصب أعيننا وانتبهنا الى المسار العريض الذي سارت عليه الدعوة الجديدة في معالجاتها للجاهلية السياسية والاقتصاديةوالاجتماعية التي واجهتها ، سنصل باذن الله للاجوبة الصحيحة التي طرحناها في صدر الفقرة هذه . بداءة نقول بأن معالجات الاسلام كانت تتصف **بالشمولوالجذرية والواقعية** . أما الشمول فنقصد به أن رسول الله وصحابته والجماعة الاسلامية الاولى واجهوا الواقع الجاهلي بكل صفاته ونواحيه وطرحوا حلولا لكل مشاكله وقضاياه واتصفت هذه الحلول بالجذرية والواقعية . أما الجذرية فنقصد بها أن الحلول الاسلامية كانت انقلابية في محتواها وعلى المدى البعيد سواء ما يتعلق منها بملكية الارض أو المال أو قوة العمل أو المبادىء السياسية الاساسية التي طرحها القرآن كبديل ونقيض لمجمل الوضع الجاهلي . ورغم أن الحلول التي طرحها الاسلام كانت جذريّة الا انها لم تكن متعسفة ولا بعيدة عن قبول الانسان ذي الفطرة السليمة وطرحت بشكل وبأسلوب غاية في المدقة والتخطيط والمعقولية بحيث أصبح عتاة الجاهلية المكية بعدها يتسابقون في الانضواء تحت اللواء الاخضر الجديد الذي يقرر على رؤوس الاشهاد بأن **الحاكمية والسلطة وحق التشريع لله وحده** . والانلنحاول الاجابة على الاسئلة المثبتة في صدر الفقرة هذه .

القضاء على القبلية من خلال التوطين :

* بداءة يلاحظ أن الرسول اراد أن يقضي على القبلية باعتبارها الوحدة السياسية المرتكزة على رابطة الدم ، من خلال التأكيد على معنى الامة التي رابطتها الايمان بالفكرة والدعوة الاسلامية . هنا طرح بديلا لرابطة الدم

معقولا ومقبولا لدى معظم الناس وخاصة الاكثرية الضعيفة والمعدمة . زيادة على ذلك كان يدرك ــ عليه الصلاة والسلام ــ أن استيطان القبلي وربطه بموطن معين وتشجيعه على الحرفة والعمل والحؤول دون ارتحاله المستمر من شأنه أن يضعف الوشيجه القبلية وبالتالي يسهل من احلال رابطة الايمان بالدعوة الجديدة محل رابطة الدم . عليه بدأ الرسول بتشجيع الزراعة **وتحرير الماء والكلاء والنار من سيطرة الراسمالية التجارية في مكة (١٥) . وحـــرص كذلك على تحديد ملكيات الارض وتحجيرها** . يروى أبو يوسف فـــي كتاب **« الخراج »** حديثا عن رسول الله (ص) رواه عن طاوس حيث يقول : « ليس **لمحتجر** حق بعد ثلاث سنين (١٦) » وبهذا يكون الرسول (ص) قد حدد مدة ثلاث سنين يحتفظ فيها المحتجر بحقه في عدم قيام غيره بتحجير الارض حجرها أو احيائها . أما بعد انقضاء هذه المدة الكافية للبدء في احياء الارض الموات ، دون القيام به ، فان ذلك يؤدي الى تعطيل احياء الارض ، بواسطة القادرين على هذا الاحياء دون مبرر . كذلك شجع الرسول (ص) على **احياء الارض الموات** بقوله : « من أحيا أرضا ميتة فله رقبتها ، **وليس لعرق ظالم حق »** (١٧) ويضع هذا الحديث قاعدتين قانونيتين هامتين : أولاهما تقضي بأن من يصلح أرضا ميتة ويزرعها يصبح مالكا لها . وأما القاعدة الثانية فتقضي أن من يغتصب أرضا أحياها غيره يعتبر ظالما ، ولا يكون له الحق فيها ، بل يجب أن يجبر على تركها لمن أحياها فأصبح بذلك مالكا لها . وعندما جاءت الدعوة الجديدة ، كان العرب قبلها يحمون بعض أراضي المراعي . وكان هذا **الحمى** يقوم على أساس القوة والغلبة فكلما قويت القبيلة كلما كانت أراضي حماها أكبر واتسع فقال رسول الله (ص) :« لا حمى الا لله ولرسوله » وذلك يعني أن الحمى **يجب أن يقوم على الملكية الجماعية** للناس جميعا ، لا للاقوياء دون الضعفاء (١٨) وهناك كثير من مثل هذه الاحاديث البليغة المعنى التي تحث المسلمين على احياء الارض والاعتناء بها كوسيلة هامة من وسائل الانتاج على أن تكون المحصلة النهائية في كل ذلك المصلحة الجماعية لا فقط المصلحة الخاصة بذلك نستخلص **القواعد الخمس** الهامة التي وضعها الرسول (ص) فيما يتعلق بملكية الاراضي والماء سواء كان للشرب أو لري الارض :

١ ــ حق تملك الارض الميتة بمجرد احيائها .

٢ ــ رعي الماشية في المراعي مباح للناس جميعا وهذا خاص بالمراعي غير المملوكة ملكية خاصـــة .

٣ ــ بناء على حكم الرسول (ص) في مهزور وادي بني قريظه أن الماء الى العقبين لا يحبسه الاعلى على الاسفل أو يحبسه الاسفل على الاعلى ،

وبذلك وضع الرسول (ص) حدا لاحتجاز المـــاء .

٤ ــ تحديد حرم البئر بأربعين ذراعا من نواحيها كلها لاعطان الابل والغنم .

٥ ــ من زرع في ملك غيره بغير اذنه فليس له الا ما انفق (١٩) .

جاءت التدابير الاسلامية المذكورة كضربة موجعة للراسمالية العقارية التي كانت تتحكم باراضي شاسعة نظرا لما لها من عصبية قبلية وغلبة وقهر حتى عهد قريب بل وفي خلال الايام الاولى للدعوة ــ وكانت تنتقل من محنـــة لاخرى ــ سيطرت الراسمالية العقارية المسنودة قبليا على آبـــار ومراعي كثيرة وشاسعة ومن خلال تدابير موغلة في الظلم والاستبداد والقهر كقضية « الحمى » فكانت بعض القبائل القوية تحيط مساحات هائلة من الاراضي الخصبة بحجة انها مراعي خاصة لخيولها ومواشيها بينما في كثير من الاحيان كانت هذه الاراضي تتداول بين المتمولين من اقطاب الراسمالية العقارية ويحرم منها الفرد الضعيف قبليا رغم انه يمثل الاكثرية وكانت بعض القبائل القـــوية تحبس الماء عن القبائل الضعيفة فتضطرالاخيرة الى مغادرةمضاربها والارتحال الى حيث تجد الماء ، فتتوجه القبيلة الحابسة للماء بالاستيلاء عـــلى المراعي المهجورة . وكانت كثير من القبائل المتمتعة بعصبية وغلبة ومنعة تحتل اراضي شاسعة حول آبارها بحجة انها اعطان لابلها وغنمها هذه المساحات المحيطة بالآبار تسمى « حريم » البئر ومفردها حرم البئر . جـــاءت اذن التدابير الاسلامية بشأن الارض كوسيلة هامة من وسائل الانتاج ــ خاصة فيالجزيرة العربية حيث يندر الماء والكلأ ــ فتخلصت من نفوذ الراسمالية العقارية التي كانت تتمثل بكبار القبائل وخاصة قريش وادت الى اهتمام واسع بعمليـــات الاستيطان والاهتمام بالزراعة وحفر مزيد من الابار ونشوء مصالح جديدة لاوسع قطاع من سكان الجزيرة . لقد انهت هذه التدابير عهودا غابرة اعتمدت فيها الراسمالية العقارية على الغلبة والقهر والعصبية القبلية حيث كانـــت الجزيرة العربية وخاصة مراكزها السكانية تحكم التجارة والسمة المركنتيلية كل العلاقات الاجتماعية . ولقد ادخلت هذه التدابير بشأن ملكية الارض والماء والكلأ قيما جديدة لمجتمع الجزيرة لم يكن له بها عهد مثل القانون والسلطة المركزية وحق الفرد الضعيف واهمية كل ذلك من أجل استقرار المعيشة . **بدون شك كانت هذه التدابير من الاهمية بمكان ليس فقط في القضاء عـــلى التنفذ القبلي ، بل حتى على مسيرة الاسلام فيما بعد ، حيث تبين للكل الاتجاه الجماعي للدعوة الجديدة والغائها الجذري لقيم التملك البائدة في عصر عرب الجاهليـــة .**

نظرة الدعوة الجديدة للحرف والعمـــل :

عندما جاءت الدعوة الجديدة كانت **الكلمة** تحتل مساحة كبيرة مـــن اهتمامات العرب . وكان لكل قبيلة **شاعرا** يبيع كلمتها في سوق عكاظ ، اما مفاخرا أو هاجيا . في غضون ذلك ضاعت كثير من الحقوق وسادت كثير من المظالم وتكرش الكثير من الشعراء . ومن يراجع الشعر الجاهلي ويدرســـه كقيمة سياسية واقتصادية واجتماعية ، ـــ لا كفن أدبي ـــ يدرك ذلك تمام الادراك . وجاءت الدعوة الجديدة لتلغي كل ذلك وتحاول أن تبني حضارة جديدة تقوم على **العمل** لا الكلمة وتطرح في برنامجها **عاملا** لا شاعرا . وتلك قيمة جديدة في وسط الجزيرة الانساني . كان العرب قبل الاسلام يعتمدون في حياتهم على الرعى والصيد والنهب والسلب ، وحراسة القوافل التجارية، وكانوا يعترفون بل يتباهون في أشعارهم ببعض هذه الاعمال كالنهب والسلب، ويزدرون سائر الحرف كالزراعة والصناعة والملاحة والتجارة . وقد اشتغل اهل الحضر ـــ وهم قلة ـــ بما انف منه اهل البادية ـــ وهم الاكثرية ـــ في الجزيرة العربية ، فكان منهم الزراع كأهل المدينة والتجارة كأهل مكة . غير أنه بمعنى أشمل ظلت كثير من المهن والحرف مزدارة يعير بها اصحابها كانما هي وصمة عار . فالتيميون ـــ بني يتيم ـــ كانوا يعيرون الازديين بأنهم بحارة لان أبناء عمومتهم في عمان كانوا يشتغلون بالملاحة (٢٠) والقرشيون كانوا يحتقرون أهل المدينة لانهم زراع . وحين لقى أبو جهل مصرعه في غزوة بدر ، لم يأسف على مقتله بقدر ما أسف على انتهاء حياته بيد المسلم **الاكار** اذ يقول وهو يلفظ انفاسه الاخيرة : « فلو غير اكار قتلني « والاكار الزراع » أراد به احتقاره وانتقاصه ـــ كما يقول ابن الاثير ـــ كيف مثله (الاكار) يقتل مثله (أبو جهل) (٢١) » كذلك قال أبو جهل عندما ارتقى ابن مسعود ـــ وهو احد الصحابة ـــ عنقه : « لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم » (٢٢) وهو قول يعكس احتقار ابي جهل للاجارة على رعي الغنم وما أشبه من الاجارات، مثله في ذلك كمثل ما يسمون باشراف العرب جميعا ، ولم يعلم بأن الرسول(ص) كان يرعى غنم أهل مكة مقابل بضع قراريط (٢٣) . **بجانب احتقارهم للعمل والمهن والحرف ، كانت العرب تبجل الشعراء الذين يمدحون ويهجون وفي كل واد يهيمـــون .**

وجاءت الدعوة الجديدة لتحدث انقلابا في القيم الاجتماعية وتلغى الغاء سائر القيم الجاهلية المتعلقة بالعمل والعمال كيف لا وصاحبها لا يرى الغنم على قراريط وهو ابن امراة كانت تأكل القديد . جاءت الدعوة الجديدة بتصور جديد للعمل والعمال والحرف والصناعات والزراعة بل وحتى للشعر (٢٤) حيث طمحت أن تحوله الى اداة للتغيير نحو مجتمع افضل في الجزيرة لا اداة

قبلية بيد من يتمصلحون من وراء تثليج الوضع الجاهلي وتثبيته . لم تقل الدعوة الجديدة بأن العمل كرامة فحسب بل رفعته الى مستوى العبادة والجهاد في سبيل الله خاصة .قال الصحابة وقد رأوا شابا قويا يسرع الى عمله : لو كان هذا في سبيل الله . فيقول عليه السلام : لا تقولوا هذا ، فانه ان كان خرج يسعى على و لده صغارا فهو سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله (٢٥) . . . واكرمت الدعوة الجديدة في دستورها ــ القرآن ــ العمل في آيات كثيرة واقترن العمل في كثير من السور بالصلاة : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » . (سورة الجمعة ١٠) ، وقد خفف الله سبحانه وتعالى عن رسوله ومن اقتدى به من المسلمين ، أعباء قيام الليل لاسباب منها : الا يرهق التعبد البعض ليلا فيقعدهم عن طلب الرزق نهارا وفي هذا تقول الاية : « ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى ، واخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله واخرون يقاتلون في سبيل الله . . . » (سورة المزمل ٢٠) ويروى ابن تيمية في كتابه الام ، « **السياسة الشرعية** » هذه الحادثة التي تدل دلالة واضحة أن الدعوة الجديدة غيرت الكثير من مفاهيم وقيم العرب حول **الاجارة والحكم** يقول : دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن أبي سفيان فقال : السلام عليك أيها الاجير ، فقالوا : قل السلام عليك أيها الامير ، فقال ، السلام عليك أيها الاجير فقالوا : قل أيها الامير ، فقال معاوية : دعوا أبا مسلم ، فانه أعلم بما يقول . فقال أبو مسلم : انما أنت أجير استأجرك ر بهذه الغنم لرعايتها ، فان أنت هنأت جرباها وداويت مرضاها ، وحبست أولاها على أخراها وفاك سيدك اجرك ، وان أنت لم تهنأ جرباها ، ولم تداو مرضاها ، ولم تحبس أولاها على أخراها ، عاقبك سيدها (٢٦) . فبعد أن كان الاجير يعير في الجاهلية ، واذا بالحاكم نفسه يوصف بهذه الصفة . ولقد كان الرسول (ص) في كل مناسبة يؤكد احترام الدعوة الجديدة للعمل والحرفة والعمال ولا يستنكف ــ كما فعل أرباب الجاهلية ــ عن القيام بأوضاع الاعمال : فكان يغرس النخل بيديه ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ، ويعقل بعيره ، ويعلف ناضحه ويخدم ضيوفه بنفسه ، بل ويخدم خدمه ، حتى ليقول أنس : خدمته (أي رسول الله) نحوا من عشر سنين فوالله ما صحبته في سفر ولا حضر لاخدمه الا وكانت خدمته لي أكثر من خدمتي له (٢٧) . ولقد أكد القرآن ــ دستور الدعوة الجديده ــ بأن كل أنبياء الله ورسله كانوا من أصحاب الحرف ومن

يبيعون قوة عملهم ، اذ عمل زكريا نجارا ، وعمل داود زرادا وعمل موسى اجيرا ، وكل رعى الغنم كما اشار الرسول (ص) في بعض أحاديثه وكل مشى في الاسواق كما اشار القرآن . **وكذلك عمل الاعلام من اصحاب الرسول (ص) حتى سارع ابو بكر الى السوق صبيحة يوم استخلافه ، وعلى راسه اثواب يريد ان يتجر فيها ، وقد كاد يفعل ، لولا ان منعه عمر وابو عبيدة ليفرغ لامور المسلمين ، اذ قالا له : كيف تصنع هذا وقد وليت امور المسلمين قال : فمن اين اطعم عيالي ؟ قالوا : نفرض لك ، ففرضوا له كل يوم شطر شاه رضي الله عنه وارضاه (٢٨)** . ومن هذه الحادثة يتبين أن أبو بكر ولي الخلافة ولم تكن له مخصصات لاطعام عياله وانه مطالب بأن يضرب في الارض كما يفعل غيره ، ولهذا دلالات كبيرة فيما يخص الدعوة للعمل . كذلك لم يستنكف علي بن أبي طالب ــ كرم الله وجهه ــ وهو ابن عم الرسول (ص) وزوج ابنته ، أن يعمل اجيرا عند يهودي لقاء ثمرات معدودات ، فقد روى ابن ماجة عن ابن عباس قال : اصاب نبي الله صلى الله عليه وسلم خصاصة ، فبلغ ذلك عليا ، فخرج يلتمس عملا يصيب فيه شيئا ليغيث به رسول الله (ص) فأتى بستانا لرجل يهودي ، فاستسقى له سبعة عشر دلوا ، كل دلو بثمرة ، فخيره اليهودي من ثمرة سبع عشرة عجوة ، فجاء بها الى النبي صلى الله عليه وسلم (٢٩) .وكان الرسول (ص) يأبى أن يعطى السائل ، بل يدله على عمل يرتزق منه . وفي هذا يقول انس : أن رجلا من الانصار اتى النبي (ص) فسأله ، فقال : أما في بيتك شيء ؟ قال : بلى ، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء . قال : ائتني بهما ، فأتاه بهما ، فأخذهما الرسول (ص) بيده وقال : من يشتري مني هذين ؟ قال رجل : انا آخذهما بدرهم . قال الرسول (ص) : من يزيد على درهم مرتين او ثلاثة . قال رجل : انا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما اياه ، فأخذ الدرهمين فأعطاهما الانصاري ، وقال له : اشتر بأحدهما طعاما فانبذه الى أهلك واشتر بالاخر قدوما فائتني به ، فأتا به ، فشد فيه رسول الله (ص) عودا بيده ، ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ولا اريبك خمسة عشر يوما ، ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبا وببضعها طعاما ، فقال له رسول الله (ص) : هذا خير لك من أن تجيء المسالة نكتة في وجهك يوم القيامة (٣٠) . حتى حرفة كنس العذرة اي **تنظيف** الغائط ومواضع قضاء الحاجة كتب عنها الفقهاء بأنها ضرورة اجتماعية لا بد أن يقوم بها أحد من المسلمين ، يقول الكاساني : « ويجوز الاستئجار لنقل الجيف والنجاسات ، لان فيه دفع أذيتها عن الناس ، فلو لم تجز لتضرر بها الناس » (٣١) ومن الامور الطريفة في الفقه الاسلامي وعلوم الحديث ومصطلحه هو خلاف الفقهاء حول **الاستئجار لحمل الخمر** . فبعض الفقهاء يعتبرون الاجارة

لحمل الخمر (كمهنة أو كحرفة) انها لا تصح وحجة هؤلاء ــ ومنهم مالك والشافعي وأبو يوسف وأحمد ــ أن حمل الخمر معصية لكونه اعانه على معصية ويستشهدون بقول الله : « الا أن أبو حنيفة يرى أن الاجارة بهذا الشأن صحيحة ، الا أن يحملها العامل بنية الشرب ، فلا يجوز وحجة أبو حنيفة أن نفس الحمل ليس بمعصية ، بدليل أن حملها للاراقة مباح ، وليس الحمل بذاته من ضرورات الشرب . فأما الحديث الذي لعن فيه الرسول (ص) حامل الخمر ، فقد فسره أبو حنيفة على الحمل بنية الشرب (٣٢) . وتعددت الآراء في هذا الشأن ، ولستا في موقع يعلم الفقه حقيقة العلم لاتخاذ موقف بصدد المطروح ، ولكني طرحت هذه المسألة من باب اهتمام الفقهاء المفصل بمسألة العمل والعمال والاجارة وحرصهم على أن يأخذ الاجير أجره الذي يستحقه بدون ما تغطية أو تحايل . ولقد كتب كثير من الفقهاء حول مسألة العمل والحرف والعمال وتأكيد اهمية الموضوع اسلاميا ومنهم الشوكاني في « **نيل الاوطار** » ، وابن القيم في « **اعلام الموقعين** »، وابن حنبل في « **المسند** » ، والسيوطي في « **الاشباه والنظائر** » ، والقرافي في « **الفروق** » ، والجصاص في « **احكام القرآن** » ، وابن تيميه في « **اقتضاء الصراط المستقيم** » ، وابن قدامه في « **المغنى** » ، واخيرا وليس آخرا أبو يوسف في « **الخراج** » . وخلا صة ما نريد أن نذهب اليه هو أن الدعوة الجديدة من خلال دستورها ــ القرآن ــ ومن خلال داعيتها الاول الرسول (ص) الغت ونقضت المفهوم العربي الجاهلي للعمل والحرفةوالعمال ونزعت من المجتمع الاسلامي ترسبات أبو جهل العربية ونفسية القبيلةالمريضة التي كانت سائدة قبل مجيء الدعوة . **وباختصار كانت الدعوة الجديدة بصدد بناء حضارة جديدة تقوم اساسا على دعامة العمل ومن خلال العامل وتلغى حضارة الكلمة التي تقوم اساسا على الشاعر وشتان بين الحضارتين في ميزان التاريخ .**

دولة الفكـــرة

وقيم الاسلام السياسية الجديدة :

ان الواقع السياسي الذي كانت تعيشه الجزيرة العربية وكذلك العرب في أطرافها ، كان واقعا يرتكز على الوحدة السياسية آنذاك وهي **القبيلة** ، ووشيجه واحدة تتمحور حولها الاحلاف القبلية هي **رابطة الدم** ، وهدف استراتيجي واحد وهو **تحقيق الغلبة والنصر والقهر** . في غضون كل ذلك سحقت مصالح الناس العاديين والمستضعفين غير المسنودين ولا المتحالفين قبليا . وكان التصور العام للسلطة السياسية التي يمثلها رئيس القبيلة

ومجلسها ، تصور يتلاقى وهدف الغلبة والنصر والقهر . وجاءت الدعوة الجديدة لتلغي كل ذلك وتطرح من خلال دستورها ـــ القرآن ـــ ومن خلال التجمع الحركي المنظم الذي انشاه الرسول (ص) قيما ومفاهيم سياسية جديدة على العرب . فبدلا من **القبيلة** طرحت الدعوة الجديدة مفهوم **الامة** ، والعاء **لرابطة الدم** اسست **رابطة العقيدة** ، ومحوا لهدف **الغلبة** والنصر والقهر طرحت هدف تحقيق **الشريعة** . ان نظرة وجيزة للمصطلحات الجاهلية الثلاثة ومقارنتها بالمصطلحات الاسلامية البديلة لها ، وان تنفسا مختصرا لطبيعة البدائل الاسلامية ، يقضي بنا الى تلك البدائل التي كانت حضارية ومتقدمة جدا اذا ما قورنت بما كان عليه الحال قبل البعثة . ان المجتمع السياسي التي كانت الدعوة الجديدة بصدد صناعته يختلف جذريا من حيث ماهيته وطبيعته وهدفه وتصوره وعلاقاته وشتى نواحي وجوده السياسي عن المجتمع الجاهلي الذي سبقه . انه مجتمع لم تعهده الجزيرة قط في كل اطوارها ومراحلها التاريخية ، مجتمع الفكرة تدير شؤونه دولة الفكرة . هذه الدولة التي قامت سنة ٦٢٢ م كانت دولة عالمية (اممية) ، كما كانت دولة منهجية ايديولوجية على اساس من الواقع التاريخي الامين . تضمنت مهاجرين من مكة ، لكن هؤلاء المهاجرين لم يكونوا من الضعف بحيث يكونون مجرد لاجئين ، ولا من القوة بحيث يكونون فاتحين . وتضمنت انصارا من يثرب لكنهم في عددهم المحصور وقوتهم المحدودة لم يكونوا جبهة غالبة كاسحة ، بل كان يتربص بهم خطر مخالفيهم داخل مدينتهم وخطر مكة وقريش وقد أووا طريدها . ومن هنا وجد المناخ الصالح لقيام الدولة العالمية نتيجة حتمية لقيامها على الاساس الايديولوجي (٣٣) انها دولة عالمية في عناصر تركيبها **ووثائق تاسيسها** ، كما هي عالمية في اصولها ومبادئها الفكرية العقائدية العامة . ما كاد الرسول (ص) يستقر في المدينة وما كاد العام الاول من هجرته اليها ينتهي حتى وضع دستورا لتظليم الحياة العامة هناك ، وتحديد لعلاقات بينها وبين جيرانها ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية ا تشريعية وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم لظروفهم ، وقد عرف هذا الدستور **بالصحيفة** (٣٤) . أما أطراف هذه الصحيفة ثلاثة : المهاجرين ، والانصار ، ويهود يثرب ومن الغني عن البيان انه لا نستطيع أن نفهم وضع الدولة في الدعوة الاسلامية في اطوارها الاولى الا من خلال الاستعانة بهذه الصحيفة التي هي الدستور المكتوب لدولة الرسول في المدينة ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ **اول امرها** على اساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الاسلامية ، فانما تقوم الدول اولا ثم يتطور امرها الى وضع الدستور . (٣٥)

الصحيفة :

يلاحظ من قراءة النص أن أسلوبها وافق تماما اسلوب العصر والفترة التي كتبت فيها . ويوافق روح التنظيم في المجتمع العربي من حيث الترابط القبلي والاعتراف بقوة العصبية واثرها في المجتمع وانه ليس من السهل ــ على الاقل في ضوء ظروف كتابة الصحيفة ــ التخلص منها . « وقد بدا واضحا في الصحيفة أن البطون والعشائر ادخلت في النظام الجديد بشخصياتها القبلية لا بأفرادها . وهذا ما كان يجري عليه المجتمع العربي في تكوينه في ذلك الوقت. ثم انها توافق تشكيل المجتمع في المدينة من حيث أقسام القبائل وبطونها وارتباطاتها الحلفية (٣٦) . » ورغم أن الصحيفة قد جاءت ببعض المصطلحات الجذرية العقائدية الا انها ايضا تحلت بقدر كبير من الواقعية ومعرفة المفارق الاساسية بين عالم الممكن وعالم المستحيل في ضوء تلك الظروف التاريخية العصبية التي عايشتها الدعوة . فهي ــ اي الصحيفة ــ توافق القرآن الكريم في مبادئها العامة من حيث اعتبار المسلمين أمة واحدة من دون الناس ، ومن حيث التراحم والتعاون بينهم ومعاونة بعضهم بعضا ، ومن حيث الاحتفاظ برابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة ، ثم من حيث مراعاة حقوق القرابة والصحبة والجوار . كذلك كتحديد المسؤولية الشخصية والبعد عن ثارات الجاهلية وحميتها . كذلك وافقت الصحيفة القرآن في وجوب الخضوع للقانون ورد الامر الى الدولة بأجهزتها للتصرف في الامور . وفي شؤون الحرب والسلم ، وان حرب الافراد وسلمهم انما تدخل في الاختصاص العام فلا تحدث فرديا . كذلك معاونة الدولة في اقرار النظام والاخذ على يد الظالم وعدم نصر المحدث أو ايوائه (٣٧) . ولقد افرد الرسول (ص) قسما من الصحيفة لتحديد وتعريف العلاقة بين دولة الفكرة وقطاعا من قطاعاتها السكانية غير المؤمنة بالدعوة يتضح من خلالها تسامحا كبيرا عجز اليهود أن يكونوا في مستواه على مدى التاريخ : « وأن اليهود لينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وانفسهم الا من ظلم واثم فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته . وأن ليهود بني النجار .. » يلاحظ أن الرسول (ص) ذكر فقط اليهود الموالين للبطون العربية واهمل ذكر القبائل الكبرى من اليهود وهي ثلاث (بني النظير ، بني قريظة ، وبني قينقاع) والتي كانت تناصبه (ص) العداء آنذاك . ويلاحظ كذلك أن الرسول (ص) أعطى صفة للجماعة الاسلامية (صفة امة واحدة من دون الناس) . والامة التي عناها الرسول (ص) لها منطقة من الارض اجمالية ، وهي منطقة المدينة ، وكل هذه المنطقة ينبغي أن تكون حرما وارض سلام لا يعتدي فيها أحد على أحد ، والامة لذلك لا تشمل ــ في مفهوم

الرسول (ص) ــ على المؤمنين وحدهم ، بل هي تتالف من كل من يتبعهم ويحارب معهم اي من كل اهل المدينة ، وكان بين الانصار قوم لم يسلموا ولكنهم لم يستبعدوا من الامة بل ادمجوا فيها بنص صريح ، وكذلك اليهود شملتهم الامة ، وان كانوا لا ينتمون اليها انتماء وثيقا كالمهاجرين والانصار ، ولذلك لم تكن تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق (٣٨) . ومن أهم نتائج الصحيفة ــ خاصة في ضوء الظرف القبلي السائد آنذاك ــ تنازل القبائل عن حق الاخذ بالثأر فيما بينها :

« وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله عز وجل والى محمد صلى الله عليه وسلم وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » . هنا يحاول الرسول (ص) تأسيس سلطة مركزية لا قبلية يرجع اليها عند الخلاف كما يحاول وضع حد للتشتت القبلي الذي أصاب العرب في جاهليتهم . وعلى هذا لم يصبح الثأر أمرا يتحول الى ثأر يجر ثأرا كما كانت الحال في القبائل العربية من قبل حيث لم تكن هناك سلطة لها قوة اقهر ، أما في المدينة فقد نفذ مبدأ العقاب والاقتصاص من الفرد الى الجماعة حدثت خطوة هامة في سبيل تعزيز السلطة المركزية في المدينة ، وهذا أمر جديد جدا على عرب الجزيرة . الامر الثاني الذي عني به رسول الله (ص) في الصحيفة هو رص الجبهة الداخلية لمواجهة الاعداء خارج المدينة فاكد ان : « المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم أو اثما ، أو عدوانا ، أو فسادا بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد احدهم » .

بعد أن وضع الرسول (ص) من خلال الصحيفة تخطيطا عاما للامة الجديدة ، حصر مهمته في الدفاع عن حدود الدولة الجديدة وضمان الامن لها . كان الرسول (ص) بحاجة لتوسيع قاعدته البشرية وتكثيف السكان في المدينة ، لذلك اعتبرت الهجرة الى المدينة اساسا للحصول على حق الرعوية للدولة ، فمن يدخل في الاسلام عليه أن يهاجر الى يثرب وقد نزل القرآن بنص صريح في ذلك : « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ») الانفال ٧٢ (ظلت هذه الدولة تنحصر على المدينة نفسها وعلى ريفها الى عام فتح مكة سنة ٨ هـ ، حرص النبي (ص) خلالها أن ينظم الحياة العامة داخل المدينة وكانت متقدمة معه جدا حيال ما يجري خارجها ، كذلك حرص ــ وعن طريق السرايا ــ على أن يضم الى المدينة ما حولها من الريف والقبائل ، ويقوم بعملية تحييد سياسي وعسكري لكل الحزام الجغرافي المحيط

بها ، لان المدينة لا تستطيع أن تعيش بنفسها ، ولا أن تستغني عن ريف يمدها بالمؤن ويكون مجالا لنشاطها (٣٩) . لقد احكم الرسول (ص) علاقاته مع العرب البدو خارج المدينة تارة بالمهادنة والمحالفة واخرى بالضرب على أيديهم ، وكان خلال كل ذلك يؤكد لهم حيوية وقوة المدينة والدولة الجديدة فيها . في السنتين الاوليين في عمر الدولة المدينة كان الرسول (ص) يرسل السرايا — وهي عبارة عن حملات حربية صغيرة — يقصد بها ما يقصد من أعمال الدوريات الحربية وهي المحافظة على الحدود والاستكشاف ، واحيانا ايقاع الضرر بالعدو والانسحاب بسرعة ، وللدكتور أحمد الشريف راي في تأكيد الصفة الدفاعية اساسا للسرايا واظن انه الراي الاصوب : « ويذكر المؤرخون هذه السرايا على انها عمليات حربية مقصودة بذاتها (الطبري وابن كثير والواقدي) وعلى أنها متصلة بالصراع بين النبي (ص) ومكة ، وهذا خطأ في نظرنا ، والخطأ آت من أن المصادر نفسها والمؤرخين المحدثين لم يفطنوا الى أن هذه السرايا كانت عمليات حربية داخلية ، يقصد بها تقوية الجبهة الداخلية ، ويقصد بها كذلك ضمان الامن ودفع الاذى الذي قد يأتي من الخارج (٤٠) . « ويمضي دكتور الشريف بالتأكيد على ، انه كان من مهمة هذه السرايا منع تجارة قريش من المرور في اراضي الدولة الجديدة ، طبقا لنص الصحيفة الذي يقول انه **لا تجار قريش ولا اموالها** ، وهذا داخل في نطاق أعمال السيادة للدولة اليثربية وكان لا بد من اشعار قريش ، ومن اشعار القبائل المجاورة ان حدود الدولة الجديدة محروسة ، وأن سيادتها على أراضيها يجب أن تحترم ، وانه من الخير الاتفاق معها والاعتراف بها (٤١) . « كان الرسول (ص) يبعث هذه السرايا القتالية كضرب من العمليات العسكرية الوقائية ، ولو كان يقصد بها حربا هجومية بالذات لاخرج كتيبته الخضراء الذي قال عنها ابن هشام : وانما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها (٤٢) وقال عنها ابن اسحاق : فيها المهاجرون والانصار ، رضي الله عنهم ، لا يرى منهم الا الحدق من الحديد (٤٣) . لقد حرص الرسول (ص) خاصة في الفترة المدينية أن يظهر لجميع الناس حسن نواياه حتى تجاه مكة وقريش واليهود ، وليؤكد لجميع الناس في يثرب والجزيرة العربية كلها انه انما جاء ليبشر وينذر ، حتى لجأ — وذلك لابراز نيته السلمية — لافهام الناس وبطريقة مادية محسوسة انه لا يود حربا ، لجأ في التعبير عن هذه النية الى طريقة مستحدثة تأباها الفروسية العربية ، وهي طريقة حفر الخندق حول المدينة (٤٤) .

خلاصة :

* من خلال هذا العرض الموجز لممارسات الرسول (ص) في شأن ملكية الارض والماء والكلأ والحرف والعمل وبيع قوة العمل والصحيفة نستطيع أن ندحض المقولة التي تحدد الاسلام وتقيسه وتحاصره في نطاق الاخلاق الفردية والمناقبية المثالية ، ونثبت حجية الراي القائل بأن الاسلام منهج يعني بشؤون الحكم والادارة والسياسة وبأنه جاء ليلغي واقعا جاهليا بكافة وجوهه السياسية والاقتصادية والاجتماعية وينشىء مكانه واقعا اسلاميا يختلف جذريا في منطلقاته وهدافه ووسائله واطره ومحطاته عن الواقع الذي سبقه. وبوسعنا أن نقول انه من خلال موقف الرسول (ص) من هذه القضايا الثلاث :

(١) ملكية الارض والماء والكلأ .

(٢) الحرف وبيع قوة العمل والعمال .

(٣) والصحيفة ، وغيرها من الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية نستطيع أن نتلمس روح الفكر السياسي في الاسلام ونوع الحكم والاقتصاد والمجتمع الذي كان بصدد صنعة القرآن ممثلا بالجماعة الاسلامية الاولى . واذا كان الامر كذلك فينبغي أن نفرد بحثا يتبع هذا يتناول **ماهية الدولة في القرآن** ، نقارن فيه مؤسسة الحكم عند العرب قبل الاسلام وطبيعة هذه المؤسسة كما جاءت من خلال النص القرآني والحديث النبوي الشريف . ولا بأس أن نخرج بعدها ببحث ثالث نقارن فيه بين الدولة كما أرادها القرآن والدولة وكما هي اليوم في المنطقة المسماة بالعالم الاسلامي .وختاما نؤكد بأن القرآن والسنة وكافة القضايا المتفرعة من تاريخها فيها من الثراء الفكري وفي المبادىء المنهجية وفي القيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ما يفرض علينا نحن المهتمين بشؤون الدراسات الانسانية أن نوليها اهتماما اكثر مما هو حاصل ، كيما نستخرج ونستنبط منها مناهج في الادارة السياسية والتسيير الاقتصادي والتخطيط الاجتماعي . من خلال ذلك تتقوى بنياناتنا ، وتتأصل مناهجنا ، ويتثبت مكاننا في مساحة الحضارة . ومن خلال ذلك تتحدد هويتنا الحضارية والفكرية والسياسية ونصبح جديرين بالبقاء في عالم اصبحت المناهج الفكرية فيه بديلة لكتائب الغزو، فنحن بلا شك في عصر الاستعمار الجديد الاكثر خطورة والاعمق اثرا في ميزان التاريخ والحضارة .

الحواشي

١ ــ سيرة ابن هشام ــ ج٤ ، ص ١٠٢٧ .

٢ ــ سيرةابن هشام ــ ج٣ ، ص : ٥٩٨ .

٣ ــ سيد قطب ، « **معالم في الطريق** » ــ القاهرة : ١٩٦٤ ــ ، ص٨٣ .

٤ ــ ابوالاعلىالمودودي ، « **مبادىء اساسية لفهم القرآن** » ــ الكويت: ١٩٧١ ــ ، ص ٢٠ــ٢١.

٥ ــ **سيرة ابن هشام** ، ج، ص ١٩٠ .

٦ ــ **سيرة ابن هشام** ، ج١ ، ص ١٩٤ ــ ١٩٥ .

٧ ــ « كان الرجل اذا سافر فنزل منزلا اخذ اربعة أحجار فنظر الى أحسنها ، فجعله ربا ، وجعل ثلاث أثافي لقدره واذا ارتحل تركه . « **كتاب الاصنام** » ، للكلبي ، ص ٣٤ . روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : « كنا نعبد الحجر . فاذا وجدنا ما هو خير منه القيناه واخذنا الاخر فاذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به » **الجامع الصحيح** ، كتاب المغازى .

٨ ــ د. محمد رأفت عثمان ، **رياسة الدولة في الفقه الاسلامي** ــ القاهرة : ١٩٧٥ ــ ، ص ٣ .

٩ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٧ .

١٠ ــ **المرجع السابق** ، ص٩ .

١١ ــ د. علي عبد المعطى ود. محمد جلال ، **خصائص الفكر السياسي في الاسلام** ص ٩ .

١٢ ــ أبو سعيد نشوان الحميدي ، **الحور العين** ، ص : ١٥ .

١٣ ــ **مختصر الدول** ، ص ص ١٥٨ ــ ١٥٩ .

١٤ ــ أكد هذه النقطة سيد قطب ــ رحمة الله عليه ــ في كل مؤلفاته وبالاخص : « **خصائص التصور الاسلامي ومقوماته** » و « **معالم في الطريق** » و « **في ظلال القرآن** » ٣٠ جزء .

١٥ ــ وقد ورد الحديث بهذا النص : « الناس شركاء في ثلاثة ، الماء والكلأ والنار » وبذلك فأرض المراعي تعتبر ملكا عاما للناس جميعا لا يختص بها بعض دون بعض وكذلك الشأن بالنسبة لمصادر الماء والنار .

١٦ ــ المحتجر هو الذي يلجأ الى تحجير الارض أي وضع الحجر كعلامات لملكيته لتلك الارض .

١٧ ــ « **كتاب الخراج** » ليحيى بن آدم القرشي .

١٨ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٤٣ .

١٩ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٥٠ــ٥٢ .

٢٠ ــ

٢١ ــ **صحيح البخاري** ، ج ٥ ، ص ٨٦ ، كذلك ابن الاثير ، « **النهاية في غريب الحديث والاثر** » ج ١ ، ص ٣٧ .

٢٢ ــ **سيرة ابن هشـــام** ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

٢٣ ــ ابن حجر ، « **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** » ، ج ٤ ، ص ٢٤٩ .

٢٤ ــ من يدرس شعر حسان بن ثابت ــ شاعر الرسول ــ قبل اسلامه وبعد اسلامه يـدرك ذلـــك .

٢٥ ــ الحافظ المنذري ، « **الترغيب والترهيب** » ، ج ٣ ، ص ٤ .

٢٦ ــ ابن تيمية ، « **السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية** » ، ص ١٢ .

٢٧ ــ النويري ، « **نهاية الارب** » ، ج ١٨ ، ص ٢٦٣ .

٢٨ ــ القسطلاني ، « **ارشاد الساري** » ، ج ٥ ، ص ٥٠ .

٢٩ ــ **سنن ابن ماجه** ، ج ٢ ، ص ٤٥ .

٣٠ ــ الحافظ المنذري ، « **الترغيب والترهيب** » ، ج ٣ ، ص ٣ . رواه ابو داود واللفظ له ، والنسائي ، والترمذي ، وقال حديث حسن .

٣١ ــ الكاساني : « **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع** » ج ٤ ، ص ٨٩ .

٣٢ ــ الكاساني ، « **بدائع الصنائع في ترتيي الشرائع** » ، ج ٤ ، ص ٨٩ .

(٣٣) فتحي عثمان ، « دولة الفكرة » (الكويت : ١٩٦٨) ص ٥٧ .

(٣٤) د. أحمد الشريف ، «**دولة الرسول في المدينة**» (الكويت : ١٩٧٢) ، ص ٨٩ .

٢٥ ــ الحافظ المنذري ، « **الترغيب والترهيب** » ، ج٣ ، ص٤ .
(بيروت : ١٩٦٩) ص ص ٣٩ ــ ٤٧ . يذكر د. حميد الله كل المراجع الرئيسية التي وردت فيها هذه الصحيفة ، كما تشرح حواشي كتابه القيم مصطلحات الصحيفة التي قد تستغلق على القارىء المعاصر .

(٣٦) د. أحمد الشريف ، المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٣٧) المرجع نفسه ، ص ص ٩٦ ــ ٩٧ .

(٣٨) المرجع نفسه ، ص ١٠٠ .

(٣٩) المرجع نفسه ص ١٠٤ .

(٤٠) المرجع نفسه ، ص ١٠٥ .

(٤١) المرجع نفسه ، ص ١٠٦ .

(٤٢) **سيرة ابن هشام** ، ج ٤ ، ص ٨٦٣ .

(٤٣) **المرجع ذاته .**

(٤٤) المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٠١ .